

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سعد بن أبي وقاص: فارس القادسية... ورجل الدعوة الصادقة

سعد بن أبي وقاص، أول نقطة في شخصية هذا الصحابي الجليل أنه شخصية فدّة، بمعنى أنه يمكن أن يعتمد عليه في أشد الأزمات، ويمكن أن يدخل لحل مشكلات كبيرة. فسَيِّدُنَا عمر رضي الله عنه كان أمير المؤمنين، وقد تلقى أبناء مؤسفة جداً من بلاد الفتوحات في فارس، فقد قُتل في يوم واحد أربعة آلاف شهيد من أصحاب رسول الله ، ولم يعُد يملك خياراً، فأراد هذا الخليفة العظيم أن يقود جيشه إنقاذاً لنفسه، وجهز هذا الجيش من بقى من أصحاب رسول الله وقادهم وخرج من المدينة، لكن صاحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا أن حياة هذا الخليفة العظيم ليست ملكه، إنما هي ملك المسلمين.

أتوقف قليلاً عند هذه الكلمة، أنت كمؤمن لك رسالة تعرف لماذا جئت إلى الدنيا، وتعرف عِظَمَ الْمُهِمَّةِ الَّتِي أَلْفَاهَا اللَّهُ عَلَى عَنِيقِكِ؟ تؤمن وتؤمن أن حياتك ليست ملكك، وهي قبل كل شيء ملك أسرتك، وملك المؤمنين، ومن هنا كانت العناية بصحة الإنسان وأجنبه دينياً، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام: ((من ركب ناقة حرونًا فلا يقربن مجلسنا...)). الناقة الحرون هي الناقة الخطيرة، يقاس على هذا أنك إذا ركب مركبة ليست جاهزتها كاملة فقد عصيت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فعن أيتك بصحتك ليست أنانية أو أثرة، ولكنها مؤثرة قد يسأل سائل: أليست الأعمار بيد الله؟ نعم الأعمار بيد الله، ولك عمر لا يزيد ولا ينقص، ولكن إما أن تمضي العمر الذي كتبه الله لك هكذا صحيحاً، وإما أن تمضيه هكذا طريحاً الفراش، لذلك دققوا في قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِنِي * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِنِي * وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِنِي﴾، فما قال: والذي إذا أمرضني فهو يشفين، فالمرض في هذه الآية عزي إلى الإنسان، أماخلق فعزيز إلى الله، فأصل المرض مُخالفة لمنهج الله عز وجل. المُلْحَصُ أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا نَهَى أَنْ تَشْرُبَ مِنْ فِمِ الْإِنَاءِ، وَأَمَرَ أَنْ تَشْرُبَ الْمَاءَ ثَلَاثَةً، وَأَنْ تَشْرِبَهُ قَاعِدًا، وَنَهَى كَذَلِكَ أَنْ تَأْكُلَ أَكْثَرَ مِنْ حَدِّ الْطَّبِيعِيِّ، وَنَهَى عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ أَنْ تَأْكُلَ فَاكِهَةَ لَيْسَتْ مَغْسُولَةً، فَمَنْ أَكَلَ التَّرَابَ فَقَدْ أَعْنَى عَلَى قَتْلِ نَفْسِهِ، وَأَيْضًا النَّبِيُّ أَنْ تَرْكَ صَحَافَ الطَّعَامِ وَفُدُورَ الْمَاءِ مَكْشُوفَةً، فَهَذَا كُلُّهُ مِنْ أَجْلِ الْحِفَاظِ عَلَى حَيَاتِكِ .

أصحاب رسول الله حينما رأوا خليفتهم وهو في وقت عصي جداً، وقد علموا أن أثمن شيء يملكه المسلمون حياؤ أميرهم، فلذلك اجتمع أصحاب رسول الله ولحقوا بعمر ، وثنوه عن أن يقود جيشه لنفسه، وأن حياته الآن في هذا الوقت العصي وقت الردة والفتنة والحراب والفتاحات هي أثمن شيء عند المؤمنين، فنزل سيدنا عمر عند رأيهم، وقال: ((من ترَوْنَ أَنْ نَبْعَثَ إِلَى الْعَرَاقِ؟

فصمت أصحابه، وراحوا يُفَكِّرون، ثمَّ صاح عبد الرحمن بن عَوْفٍ لقد وجَدْتُه، قال عمر: من هو؟ قال: الأسد في برازِته سعدُ بن مالك الزهري)) أي سعدُ بن أبي وقاص.

وكان النبي عليه الصلاة والسلام كلما دخل عليه سعدُ بن أبي وقاص يُدَاعِبُه، ويقول: هذا خالي، أروني خالاً مثل خالي، ومداعبَةُ النبي شيءٌ ثمين، فمداعبَةُ النبي لأصحابه تعني أنه راضٍ عنهم، ورضاءُ النبي عليه الصلاة والسلام هو عِنْ رِضاءِ الله عز وجل.

يبدو أن سعداً أسلم وكان ترتيبه في الإسلام الرجل الثالث، فقال رضي الله عنه: لقد أتى عليَّ يوم وأنا ثالث الإسلام، لذلك فالسابقون السابقة لهم أجرٌ عظيم، وقد أسلم على يد أبي بكرٍ. لا يوجد صحابي جليل فدَاه النبي عليه الصلاة والسلام بأمهِ وأبيهِ إلا سعد بن أبي وقاص، فعن عَلَيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَمِيعَ أَبْوَيْهِ لِأَحَدٍ إِلَّا لِسَعْدِ بْنِ مَالِكٍ فَإِنِّي سَمِعْتُهُ، يَقُولُ يَوْمَ أَحْدٍ: ((يَا سَعْدُ، ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأَمِّي)).

سَيِّدُنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ كَانَ يَقُولُ: ((وَاللَّهِ إِنِّي لَأَوْلُ رَجُلٍ مِّنَ الْعَرَبِ رَمَى سِهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))، هَذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ مَعَهُ سِلاَحَانٌ قَوْيَانٌ: رُمْحُهُ وَذُعَوْهُ، فَقَدْ كَانَ مُسْتَجَابُ الدُّعَوَةِ، لِمَاذَا كَانَ مُسْتَجَابُ الدُّعَوَةِ؟ لِأَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ دَعَا لَهُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَجَابُ الدُّعَوَةِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ سَدِّ رَمَيَّهُ، وَأَحِبْ دَعْوَتَهُ، هَذَا الصَّحَابِيُّ، إِنَّهُ الْفَارُسُ يَوْمَ بُدْرٍ وَاحِدٌ، وَفِي كُلِّ مَشْهَدٍ شَهِدَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

سَيِّدُنَا سَعْدُ، هَذَا الصَّحَابِيُّ الْجَلِيلُ كَذَلِكَ قِصَّتُهُ غَرِيبَةٌ، فَقَدْ كَانَ غَيِّرًا، وَلَكِنْ قِيلُ: قَمَّا يَجْتَمِعُ الْمَالُ الْوَفِيرُ مَعَ الْحَلَالِ، أَمَّا هَذَا الصَّحَابِيُّ كَانَتْ أَمْوَالَهُ كَثِيرَةٌ مِّنْ وَجْهِ حَلَالٍ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ، قَالَ: ((عَانَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّةَ الْوَدَاعِ مِنْ وَجْهٍ أَشْفَقْتُ مِنْهُ عَلَى الْمَوْتِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! بَلَغَ بِي مِنْ الْوَجْهِ مَا تَرَى، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلَا يَرَثِي إِلَّا ابْنَةٌ لِي وَاحِدَةٌ، أَفَأَنْصَدَقُ بِثُلْثَيْنِ مَالِي؟ قَالَ: لَا، فُلْتُ: أَفَأَنْصَدَقُ بِشَطْرِهِ؟ قَالَ: لَا، فُلْتُ: فَالثُّلُثُ؟ قَالَ: وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَدَرَّ وَرَنَّتَكَ أَغْنِيَةً خَيْرٌ مِّنْ أَنْ تَدَرَّهُمْ عَالَةً يَكْفُفُونَ النَّاسَ، وَلَمْسَتَ تُتَقْعِنُ نَفْقَةً تَبَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَحْرَتَ بِهَا حَتَّى الْلُّقْمَةَ تَجْعَلُهَا فِي امْرَأَكَ)).

ذات يَوْمٍ كَانَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَالِسًا مَعَ أَصْحَابِهِ فَنَظَرَ إِلَى الْأَقْفَاقِ بِإِصْغَاءِ، ثُمَّ قَالَ: ((يُطْلَعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِّنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَأَخْذَ الْأَصْحَابَ يُلْتَقِتُونَ صَوْبَ كُلِّ اِتِّجَاهٍ، يَسْتَشْرِفُونَ هَذَا السَّعِيدَ الْمُوْقَنَ الْمَحْظُوظَ، ثُمَّ أَطْلَ سَيِّدُنَا سَعْدَ عَلَيْهِمْ، فَلَادَ بِهِ أَحَدُ الصَّحَابَةِ، وَقَالَ لَهُ: قُلْ لِي: مَاذَا تَقْعِلُ؟ وَكَيْفَ اسْتَحْقَقْتَ هَذِهِ الْبِشَارَةَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ؟ وَبَعْدَ إِلْحَاحِ، قَالَ لَهُ: لَا أَعْمَلُ إِلَّا مَا تَعْمَلُونَهُ جَمِيعًا مِّنَ الْعِبَادَةِ، أَصُومُ وَأَصْلِي وَأَغْضَنُ بَصْرِي، غَيْرُ أَنِّي لَا أَحْمَلُ لِأَحَدٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ ضِغْنًا وَلَا حَقْدًا وَلَا أَبْغِيْهِمْ سَوْءًا)).

آخِرِ قِصَّةِ لِهَذَا الصَّحَابِيِّ، كَانَتْ مَعَ أُمِّهِ، فَسَيِّدُنَا سَعْدٌ حَاوَلَتْ أُمُّهُ كَثِيرًا أَنْ تَصْرِفَهُ عَنْ هَذَا الدِّينِ فَلَمْ تُقْلِحْ، فَاسْتَخْدَمَتْ آخِرَ وَرْقَةِ رِبِّحَةِ بَيْدِهَا، وَهِيَ حَيَاتُهَا، فَقَالَتْ لَهُ: يَا سَعْدُ، إِنِّي سَأَصُومُ عَنِ الْطَّعَامِ، وَلَنْ أَفْطَرَ حَتَّى تَكُفُرَ بِمُحَمَّدٍ أَوْ أَنْ أَمُوتَ، سَيِّدُنَا سَعْدٌ إِيمَانَهُ كَالْجِبَالِ، قَالَ: تَعْلَمِينَ وَاللَّهُ يَا

أُمِي، أَنَّهُ لَوْ كَانَتْ لَكَ مِئَةٌ نَفْسٌ فَخَرَجْتُ نَفْسًا نَفْسًا، مَا تَرَكْتُ دِينَ مُحَمَّدٍ، فَكُلَّيِ إِنْ شِئْتَ أَوْ لَا تَأْكُلِي، ثُمَّ تَلَاقَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ جَاهَكُمْ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَاتَّبِعُ سَبِيلَ مَنْ أَنْبَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنْتُمُ كُلُّكُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَلْعَنَ عَذَّاكُ الْكَبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَّاهُمَا فَلَا تَقْنُنَ لَهُمَا أُفِّ وَلَا تَتَهْرِهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، فَمَنْ عَدَ وَالِدَيْهِ بَأْنَ أَطَاعَهُمَا، وَعَصَى رَبَّهُ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءُ السَّبِيلِ .

لَمَّا أَرْسَلَهُ سَيِّدُنَا عَمَرُ إِلَى الْعَرَاقِ أَعْطَاهُ وَصِيَّةً، قَالَ لَهُ: ((يَا سَعْدُ بْنَ وَهِيبٍ، لَا يَعْرِنَّكَ مِنَ اللَّهِ أَنْ قِيلَ: خَلَّ رَسُولُ وَصَاحِبُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بَيْنِهِ وَبَيْنِ أَحَدٍ نَسَبٌ)). سَوَاءً كَنْتَ مِنْ نَسَبِ رَفِيعٍ أَوْ وَضِيعٍ، وَسِيمَ الْهَيْثَةِ أَوْ ذَمِيمَاً، ذَكِيًّا أَوْ بَلِيدًا، هَذَا كُلُّهُ لَا قِيمَةَ لَهُ، بِطَاعَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ تُسْتَطِعُ أَنْ تَصْلِي إِلَى مَا تَرِيدُ، التَّعَاوُنُ مَعَ اللَّهِ سَهُلٌ، وَلَا يَوْجَدُ عِنْدَ اللَّهِ مُقْرَبُونَ وَمُبْعَدُونَ إِلَّا بِالْتَّقْوَى، وَهُؤُلَاءِ مِنْ جَمَاعَتِهِ، وَهُؤُلَاءِ لَيْسُوا مِنْ جَمَاعَتِهِ، فَكُلُّنَا عِبَادُ اللَّهِ، وَطَرِيقُ رَضْوَانِهِ، وَمَا عِنْدَهُ مِنْ إِكْرَامٍ يُنَالُ بِطَاعَتِهِ .